قصة قصيرة

الشتاءات الساخنة

فيصل عبدالحسن حاجم

حينما انسحقت شرارات الضوء الاولى وتحولت الى خليط فضي انداح منتشرا في المسالك والفجوات ؛ شعرت عاملة البناء ان أصابعها باردة ؛ وفي ظلمة الغرفة الطينية استطاعت ان تميز أشياء الغرفة والباب الخشبي المؤطر من جوانبه بضوء القمر . أغمضت عينيها من جديد وسحبت اللحاف فوق وجهها . وفي خياشيمها انبعثت رائحة القطن القديم . حينما أخرجت وجهها من جديد استطاعت أن ترى طفلها الملفوف بالقماطات متوسدا قطعة القماش المربوطة من طرفيها في جداري الغرفة المتقابلين . كانت طيور زوجها قد استيقظت قبل فترة طويلة ، وهي تستطيع أن تسمع هديلها وهي في الغرفة . قامت عاملة البناء الشابة وكأنها لسعت بمئات الابر . شعرت بالدفء يغادر جسدها وهي تغادر الفراش ، وتحت ثوبها المشجّر المدعوك كان جسدها يرتجف . وامتدت يدها تمس الوجه الصغير . أحست بالوجه ساخنا . أخذته من السرير ووضعته في حضنها . أخرجت له ثديها . اختلجت شفتاه الصغيرتان لحظة ، وعلى الضوء القليل المتسرب من فجوات الجدار والباب الخشبي استطاعت أن ترى احمرار وجهه . شعرت بالحزن من أجل طفلها ، وحاولت من جديد أن تلقمه حلمة ثديها ، ولكن مرة ثانية توترت الشفاه الوردية وامتنعت عن التقام الحلمة .

كان الفجر باردا ، وعندما فتحت باب الغرفة الطينية ، شعرت بلسعة الهواء البارد . غسلت وجهها من ماء البرميل الذي يحتل باحة الحوش ، وحالما لامس الماء البارد وجهها شعرت بالوعي التام يعود اليها ؛ بالرغم من كونها لم تنم طوال الليل ، فقد كان الصغير مصابا بالحمى ، وكان عليها أن تعني به ، وفكرت انه لا يسعها أن تترك ابنها عند جارتهم العجوز وهو بهذه الحال السيئة ، ولكنها تذكرت انها تغيبت خلال هذا الاسبوع مرتين : مرة حينما سقطت على يدها طابوقة ، والثانية حينما مات أحد اقربائها . شعرت بالحزن يغور بعيدا في خلاياها ، وودت لو تبكي ، ولكنها حينما ادارت وجهها صوب برج الحمام ، احست بفرح خفي . وذهبت باتجاه (البرج) فرات من خلال المشبك الحديدي الحمام يزدحم قرب الباب ، وحينما أطلقته ، طار عاليا في باحة الحوش وفوق الاجنحة البيضاء والسوداء لصفت الشمس . وعلا صوت اصطفاق الاجنحة ، وبسرعة اوقدت النار وأخذت تصنع لنفسها شايا .

ومن وراء جدار الطين ، حينما كانت تلتقم الخبز والشاي ، سمعت صوت « ملا راضي » :

ـ هل أنت جاهزة ؟

توقفت عن ارتشاف شايها :

ـ ابني مريض لن أستطيع أن أتركه .

قال لها :

ـ ولكنك تغيبت مرتين هذا الاسبوع . ولا أعتقد انهم سوف يسمحون بهذا .

قالت له بخوف :

ـ هل سيطردونني من العمل ؟

أجابها بعدما سعل سعلة قصيرة :

ـ بلا شك ، وأنت تعرفين ان أعمال البناء في الشتاء قليلة .

نظرت عاملة البناء الشابة باتجاه طفلها :

ـ لا أدري ماذا أصنع ، انه مريض جدا .

قال العجوز :

ـ ولا تنسين انهم يستطيعون أن يجلبوا عاملا آخر ليقوم بعملك ..

أجابت المرأة :

ـ أجل يمكنهم هذا .

فكرت قليلا ، ثم قالت :

ـ انتظرني ، سأرسل الطفل الى جارتنا .

تحلّق الطيور عاليا وتحط في باحـــة الحوش وتلتقط الحب ، وتتزاوج ، وتصطفق أجنحتها ، وتحط فوق برميل الماء ، وتطير من جديد بمجموعة واحـــدة وتبتعد حتى تصبح نقاطا في السماء ، وعندما تتعب تعود من جديد . ولو كان صاحبها موجودا لنثر لهـــا الحبوب فوق الارض وسقاها بالماء ولأعادها مـن جديد الى برجها الطيني الذي بناه من الصفيح وغطاه بالطين ، ولكنه الآن بعيد عن طيوره ينـــام هادئا بعدما مزقته شظايا الكونكريت ودفنته البنـــاية التي بنيت بمـواد مغشوشة . يستيقظ عند حلول الظلام ليزور المبـاني المهدمة ، وليلقي نظرة عـــلى طيوره وابنه الصغير ، وزوجته المتعبة ، وحينما يغطيهما بالاغطيـــة تلتصق شفتاه اللزجتان فـــوق وجهيهما محاذران أن يتبلل وجهاهما بالدماء النازفة من فيه ويحلّق بعيدا معطيوره يداعبها حتى الفجر ، ثم يذهب لينـام نومته الهادئة ، وهو يحس بالدماء تنزف من كل خلاياه .

هو الصباح الرائع ، الذي يلون الوجوه بألوانه ، وفي الظلال ، وتحت الشمس ، وقرب الاشياء المشعة، ينعكس وجهها الرائع ، ويداها تحملان الطابوق أو مواد البناء الاخرى . وفوق الجدران المبنية ، أو التي فـي طور البناء ، يرى وجهها الموشوم قرب الحنك ، وفـي رأسها تنمو أحزان كثيرة ، ولكنهـــا في غمرة العمل المضني تنسى كل شيء الا وجه طفلهـــا تراه قد كبر بسرعة ، وجاء الى هذه المدرسة التي تبنيها مع الآخرين، أجل سيتعلم في هذه المدرسة التي تبنيها أمه ، أحست انها تبنيها له ، ولاصدقائه الآخرين ، ولذلك فهي تخلط « الجص » جيدا ، وتنقله بسرعة وكأنها تريد أن تكمـل مدرسة ابنها بسرعة لتراه في صباح الغد متأبطا كتبـه متوجها صوبها . حينما رآها « حمدان » صديق زوجها توجه صوبها ، وبعد أن ابتسم لها قال :

ـ انك جميلة اليوم .

لم تتكلم ...

ـ أريد أن أتزوجك على سنة الله ورسوله ، وانت تعرفين هذا .

ولكنها كانت تجمع الطابوق الذي تريد ان تنقله .

ـ زوجك كان صديقي ..

حينما رفعت وجهها صوبه قالت :

ـ أرجو أن تتركني ...

قال حمدان بصدق :

ـ انك متعبة ، أريد أن نتشارك في هذا التعب

ـ حمدان ، قلت لك اتركني .

ـ ابنك سأربيه مثل ابني ، انه ابن صديقي .

تركت الطابوق ، وحدقت في عينيـــه ، صمت وتراجع خطوة ، وارتجف ، وسمعها تصرخ به :

ـ حمدان نحن متعبون ، طوال حياتنا متعبون .

ـ أعرف هذا ...

ـ صدقني حينما يتزوج أحدنا يضيف لنفســـه جبلا من التعب ...

ـ ولكنها الحياة ...

ـ لا أبدا ، أبدا ...

كادت أن تبكي ، وحالما لاحظ حمدان هذا ابتعد عنها ، وتمالكت نفسها وأخذت تجمـــع الطابوق مـن جديد ... حتى حلمها الصغير بأن هذهالمدرسة ستكون مدرسة ابنها تبخر من رأسها ، ولم يبق في صدرهـا غير ذيل الحزن الجارف ، حينما تذكرت انـــه مريض جدا . وترتفع الايدي بمواد البناء فوق الرؤوس ليرتفع الجدار ، وفي السماء المخرمة كـــانت الغيوم تتجمع وتتكاثف ، وكلما تزداد برودة الجو يزداد تعرق وجهها ، وفي رأسها تنمو الشتاءات الساخنة ، الشتاءات التـي تنفرز كالسكاكين في قلبها . في شتـــاء ماض حفرت الركام مع الآخرين بحثا عن زوجها . انها شتاءات حارة والعرق يبلل الوجه والثياب. وفي هذا الشتاء : حدقت في السماء ، انها سماء ملبدة بالغيوم ، والريح الساكنة، ومعنى هذا ان المطر على وشك النزول . وتخيلت الطرق مبللة وبيتهم منقوع تماما . وارتسمت فوق شفتيهـــا ابتسامة حينما فكرت انها ستحتضن ابنها وتحدق في نار « المنقلة » وتسمع قطرات المطر التي تطرق الباب ، مثل ضيف خجول يجيء بعد منتصف الليل ، وتتخيـله قويا يتقدم فوق الطرقات المبللة ، وصوت حذائه الثقيل يرن وسط الصمت المسحوق بين قدم وقدم . تحس بأقدامه الواثقة ، تتقدم من البيوت الواطئـة الطينية ، ليطرق باب الخشب ، الذي يقع في فم الزقاق ، تفتح له الباب وتمسح من فوق رأسه قطرات المطر وتدثـره بمعطفه الثقيل ويجلسان حول النار ويتشاركان برغيف الخبز وقدحي الشاي .

عندما بدأت اولى قطرات المطر تنفلق فوق الارض والرؤوس كان العمل قد انتهى . وفـي طريق العـودة استطاعت أن ترى سيدات رائعات بمـــلابس غالية ، وأطفالا بوجوه موردة ، وشعرت بالـــدماء تتدفق فـي قلبها ، وانها تريد أن تحتضن ابنها ، أن تضعه فـــوق قلبها وتقبله بعنف طويلا والى الابد ...

البصرة (العراق)